لماذا فقدنا الأخوة والمحبة في الله

بقلم أ. عامر الأسمري

يـــمرُّ المسلم في حياته على بعض المواقف الصعبة والمحرجة، وعندما ينظُر المسلم إلى حياتنا اليوميَّة يجد خَيْبَةَ الأمل؛ فكثيرٌ من الناس اليومَ يشتَكُون من فقْد الأخوَّة في الله، أو فقْد رُوح الأخوَّة التي حثَّنا عليها الـــشارع في الكتاب والسنَّة.

يقول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْـــبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـــدُونَ ﴾ [آل عمران: 103].

ويقول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجـــسد؛ إذا اشتَكَى منه عضوٌ تَداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحمَّى)).

أحبتي، أنا لستُ متشائمًا، ولكن هذه هي الحقيقة الموجودة في حياتنا، والسؤال الذي يَطرَح نفـــسه: لمـــاذا أصبحَتِ الأخوَّة مصلحةً دنيويَّة، أو مصلحة قرابة، أو قبيلة أو عشيرة، أصبحت الأخوَّة اليومَ مُعلَّقة أو مُقيَّـــدة بمصلحةٍ دنيويَّة، بعيدة عن تحقيق الهدف الأخروي، والله المستعان.

أصبحَتْ أخوَّتنا اليومَ مُقيَّدة بولد العم وولد الخال.

وأصبحَتْ أخوَّتنا اليومَ مُقيَّدة بالأقرباء وأهل القبيلة.

وأصبحَتْ أخوَّتنا اليومَ مُقيَّدة بالجار وزميل العمل فقط.

وهذه كلُّها من ضعْف مفهوم الأخوَّة في الله عندنا؛ لأنَّ الشرع أمَر وحثَّ على الأخوَّة والمحبَّة في الله في كثيرٍ من الآيات والأحاديث النبويَّة.

قال – تعالى –: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10].

وقد ثبَت أيضًا في "صحيح مسلم" – رحمه الله تعالى –: أنَّ النبي – صلَّى الله عليْه وسلَّم – قـــال: ((إنَّ الله – جلَّ جلالُه – يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي)).

"أين المتحابُّون بجلالي"؛ يعني: الذين تآخوا محبَّةً في الله، ورغبةً في الله، لم تُقرِّب بينهم أموالٌ، لم تُقرِّب بينـــهم أنساب، وإنما حب هذا لهذا لا لغرضٍ من الدنيا؛ وإنما لله – جلَّ جلاله.

وهذا هو الذي دَلَّ عليه الحديث الآخَر المتفق على صحَّته المشهور؛ ((سبعةٌ يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظله))، وذكر منهم: ((رجلان تحابَّا في الله، اجتَمَعا عليه وتفرَّقا عليه)).

فهذه النصوص تدلُّ على عظم شأن المحبَّة في الله، وعلى عظم شأن أنْ تُقام الأخوَّة في الله على أساسٍ مـــن المحبَّة التي جاءَتْ في النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة، وإذا كان كذلك، وإذا كانت المحبَّـــة علـــى الفـــضل العظيم.

أخي الحبيب، أين نحن من أخوَّة سلفنا الصالح، الذين لا يقدِّمون مصلحة الدنيا على حبِّ الآخرة؟

فيقول محمد بن المنكدر – لَمَّا سُئِل: ما بقي من لذَّته في هذه الحياة؟ – قال: "لقـــاء الإخـــوان، وإدخـــال السرور عليهم".

وقال الحسن: "إخواننا أحبُّ إلينا من أهلينا؛ إخواننا يُذكِّروننا بالآخرة، وأهلونا يُذكِّروننا بالدنيا".

وسُئِل سفيان: ما ماء العيش؟ قال: "لقاء الإخوان".

وقيل: "حلية المرء كثرة إخوانه".

وقال خالد بن صفوان: "إنَّ أعجز الناس مَن يُقصِّر في طلب الإخوان، وأعجز منه مَن ضيَّع مَن ظفر بهم".

رُوِي أنَّ رجلاً جاء إلى أبي هريرة فقال: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حقُّ الإخـــاء في الله؟ قال له: عرفني! قال: ألاَّ تكون أحق بدينارك ودرهمك منِّي! فقال الرجل: لم أبلغ هذه المنزلة بعدُ، فقال أبو هريرة – رضِي الله عنه –: فدعك عنِّي.

عن ابن عمر – رضِي الله عنهما – قال: "ثم لقد أتى علينا زمانٌ – أو قال: حينٌ – وما أحدٌ أحق بـــدينارِه ودرهمه من أخيه المسلم، ثم الآن الدينار والدرهم أحبُّ إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت النبي – صلَّى الله عليه

وسلَّم – يقول: ((كم من جارٍ متعلِّق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلَقَ بابه دوني فمنـــع معروفـــه))"؛ "الأدب المفرد"؛ للبخاري.

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: "ثم أهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله – صلَّى الله عليه وســـلَّم – رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوَجُ إلى هذا منَّا، قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث إليه واحدًا إلى آخر، حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى الأوَّل، فنزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... ﴾ [الحشر: 9] إلى آخر الآية".

قضى ابن شبرمة حاجةً كبيرة لبعض إخوانه، فجاء بهدية، فقال ابن شبرمة: ما هذا؟ قال أخوه: لما أسديته إليَّ من معروف، قال ابن شبرمة: خُذْ مالك – عافاك الله – إذا سألتَ أخاك حاجةً، فلم يجهد نفـــسه في قـــضائها، فتوضَّأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات وعدَّه في الموتى.

وهكذا، فإنَّ أمثلة الإخاء في الله المشرقة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، على أنَّ السلف الصالح كانوا يَعِيشون في ظِلال الأخوَّة الإسلاميَّة الوارفة، متحابين مُتكاتِفين، مُتعاوِنين متفانيين، رُحَماء بينهم، أذلَّة على المؤمنين من إخـــوانهم، أشدَّاء على الكفَّار وأعزَّة عليهم.

فحيّ على رجالٍ نُجَباء يتآخون في الله، ويُحيُون تاريخ أمَّتنا التَّليد، ويَصُوغون فجر صحوة تهـــزُّ البَيْـــرَق، وتُعِيد المجد لأمَّة المجد.

اليوم كثْرة الاتِّصالات الحديثة والتقنيات المبتَكَرة، ولكنْ ضعُفت الهمَّة والعزيمة في الاستِفادة منها.

يمرُّ اليوم أو اليومان أو الثلاثة، أو الأسبوع، أو الشهر لا يَسأَل الأخ عن أخيه، وهذا – والله المـــستعان – من اشتِغال الناس بحطام الدنيا وجمع المال.

اليوم الأخوَّة والمحبَّة في الله محصورةٌ بين بعْض الصالحين في أبناء قبيلتي وعشيرتي.

اليوم الأخوَّة والمحبَّة في الله محصورةٌ في كلِّ مَن كان من دائرتي أو قريتي.

اليوم الأخوَّة والمحبَّة في الله محصورةٌ في أبناء جنسيَّتي وبلدي فقط، وكأنَّ الأخوَّة مقيَّدة بهؤلاء! فتجد تطبيق الأخوَّة في كثيرٍ من المؤسَّسات والدوائر الحكوميَّة ضعيفًا، وفي بعضها غير موجود، وهذا مُشاهَد في كـــثيرٍ مـــن الدوائر والمدارس والجامعات.

أخي الحبيب، تأمَّل حديثَ الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – في "صحيح مسلم" جاء عن النبي – صـــلَّى الله عليه وسلَّم –: ((أنَّ رجلاً زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله له على مَدرَجَتِه ملَكًا، فلمَّا أتى عليه قـــال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمةٍ تربُّها؟ قال: لا، غير أنِّي أحبَبتُه في الله – عز وجل – قال: فإنِّي رسولُ الله إليك بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببتَه فيه))؛ رواه مسلم.

أين نحن من هذا الحديث؟ رجلٌ يزور أخًا له في الله، وليس من أجل مصلحةٍ أو مالٍ، يزوره من أجل المحبَّـــة في الله، المحبَّة التي افتَقدَها وضيَّعَها كثيرٌ من الصالحين وطلاَّب العلم.

تقدم الخدمة أو المصلحة اليوم من أجل مصلحة، أو معرفة، أو قرابة، لماذا ابتعدنا عن منهج نبيِّنا – صلَّى الله عليه وسلَّم – وسلفنا الصالح؟

أخي الحبيب، قال – عليه الصلاة والسلام –: ((إنَّ الله يَقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي))؛ رواه مسلم.

وقال – عليه الصلاة والسلام –: ((قال الله – عزَّ وجلَّ –: المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نورٍ، يغبطهم النبيُّون والشهداء))؛ رواه الترمذي وصحَّحه.

وحَدَّث أبو مسلم الخولاني فقال: دخَلتُ مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب الـــنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وإذا فيهم شابٌّ أكحل العينين، برَّاق الثنايا ساكت، فإذا امترى القوم في شيءٍ، أقبلـــوا عليه فسألوه، فقلت لجليسٍ لي: مَن هذا؟ قال: هذا معاذ بن جبل، فوَقَع له في نفسي حبٌّ، فكنتُ معهـــم حـــتى تفرَّقوا، ثم هجَّرت إلى المسجد، فإذا معاذ بن جبل قائم يُصلِّي إلى ساريةٍ، فسكتَ لا يُكلِّمني، فصلَّيتُ ثم جلَستُ فاحتبيت برداءٍ لي، ثم جلَس فسكتَ لا يكلمني، وسكتُّ لا أكلِّمه، ثم قلت: والله إني لأحبُّك، قال: فيمَ تحـــبُّني؟ قال: قلت: في الله – تبارك وتعالى – فأخذ بحبوتي فجرَّني إليه هنيَّة، ثم قال: أبشرْ إنْ كنت صادقًا؛ سمعتُ رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نورٍ، يغبطهم النبيُّون والشُّهداء))، قـــال أبو مسلم: فخرَجتُ فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: يا أبا الوليد، ألاَ أحدِّثك بما حدَّثني معاذ بـــن جبـــل في المتحابين؟ قال: فأنا أحدثك عن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – يرفعه إلى الرب – عزَّ وجلَّ – قال: ((حقَّـــتْ محبَّتي للمتحابين فيَّ، وحقَّتْ محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقَّتْ محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقَّتْ محبتي للمتواصـــلين فيَّ))؛ رواه الإمام أحمد.

وضمن السبعة الذين يُظلّهم الله في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله: ((رجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليـــه وتفرَّقـــا عليه))؛ يعني: جمَعَتْهم المحبَّة في الله فاجتمعوا عليها، ولم يُفرِّقهم ولم يقطع هذه المحبَّة إلاَّ الموت، أو انقِطاع سببها.

ومن المحبَّة النافعة الحبُّ في الله، فتكون العلاقات بين الناس والحب لا لأجل القرابة فحـــسب، ولا لأجـــل توافُق الطباع وارتِياح كلِّ شخصٍ للآخَر.

فالمؤمن يُحَبُّ لأجل إيمانه، لا لجنسٍ ولا لِلونٍ ولا لبلد مُعيَّن، وإنما يُحبُّ في الله ولله، حتى نسمع عن الرجل الصالح أو المرأة الصالحة، فتحبّهم قلوبُنا وإنْ لم نعرف أشخاصهم.

ويجب أنْ تكون المحبَّة بين المتحابين خالصةً لله؛ ولذا قال – عليه الصلاة والـــسلام –: ((لا تُـــصاحب إلا مُؤمِنًا))؛ رواه أبو داود والترمذي، فإنَّ المحبَّة إذا كانت خالصةً لله – عزَّ وجلَّ – نفعَتْ صاحبَها وحُشِر مع مَـــن أحبَّ.

تأمَّل هذه الأقوال الجميلة: آيات الله، وأحاديث الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأقوال سلف الأمَّـــة، تُعطِك دليلاً على واقعيَّتها ومصداقيَّتها.

أخي الحبيب:

مَن الذي أعانك على الالتزام والدخول في عالم الهداية؟

مَن الذي يُثبِّتك على طريق الاستقامة في خضمِّ هذه الفتن؟

مَن الذي تبثُّ إليه همومك؟

مَن الذي يقف معك عند النكبات والأزمات؟

لذلك قال عمر: "لقاء الإخوان جلاء الأحزان".

إذًا كيف يَطِيبُ لعاقلٍ أنْ يقطع أواصر الأخوَّة والمحبَّة، ليعيش حياة الهموم والغموم، بعيـــدًا عـــن فـــضائل الأخوَّة والمحبَّة في الله ونتائجها العظيمة؟!